

# قراءة في اشعار عصام ترشحاني

## بقلم: صالح الرزوق

فعلا .  
 ونراه يعبر عن هذه الشهوة في أكثر من مكان .  
 يقول - مثلاً - في قصيدته ( وطن وعصفور وقنبلة ) :  
 طوي لموت يفتن الأحباب  
 طوي لمن قصفوا الغزابة  
 والكآبة والغياب  
 طوي لمن ولجوا  
 إلى قمر اليباب .  
 وفي قصيدة ( عندما يصبح الغناء حديقة ) يقول :  
 ها أنا في غرفة الليل  
 أداري ..  
 شهوة القتل وحيدا  
 وأنادي ..  
 يا طيور البحر هاتي  
 الذي يحلم بالهتك .. علامة  
 جسدي ..  
 صار حريقاً  
 يتشهى مطر الويل ،  
 ورأسي .. صار غابه ..

\* \*

ولكن استمرار ( شهوة ) الحرب لا يعني على الإطلاق استمرار الشاعر على مستوى واحد من الوعي الفني أو الفكري . فالنقلة المهمة من ( الغزاة .. ) إلى ( أيتها الحبيبة .. ) ملحوظة ومحسوسة دونما ريب . وأول ما نلاحظه ضبط الإيقاع الفني ، وتحديد العدو القومي على نحو أكثر وضوحاً . لقد كان التحكم بهدس المعركة في المجموعة الأولى فوق مقدرة الشاعر ، لذلك تبدأ الحرب منذ بداية القصيدة دون أن تنتهي ، ويجد القارئ نفسه مباشرة وسط مفردات ( حربية ) تؤكد ضرورة التضحية والشهادة في سبيل القضية . ولا يتم تحديد وجه العدو إلا في ريع القصيدة الأخير . أي بعد منتصف المعركة ( أنظر قصيدة أنا والنخلة الظامئة على سبيل المثال ) . على أن بداية الترتيب المنطقي تأخذ طريقها إلى تقنية الشاعر

استطاع الشعر العربي الفلسطيني من خلال تجربته النضالية ، أن يكون لنفسه لغة خاصة ، من حيث المفردات والتراكيب والصور ، وحتى الموسيقى أيضاً .  
 فمنذ غنائيات وحماسيات المرحوم عبد الرحيم محمود إلى ملاحم محمود درويش ، والشعر الفلسطيني يبني أدواته الفنية ويطور فيها بما يناسب ويلائم تطور أبعاد قضيته ، وتطور أبعاد الفن الشعري .  
 وقد بدأت تلك الرحلة النضالية والفنية من الأرض المحتلة مع سميح القاسم ومحمود درويش وتوفيق زياد وسالم جبران ، واستمرت خارج الأرض المحتلة مع محمود درويش أيضاً ، بالإضافة إلى الجيل الجديد كخالد أبو خالد وأحمد دحبور وعصام ترشحاني ...

\* \*

عصام ترشحاني أحد الأصوات الجديدة التي صعدت مع بداية السبعينات بنغمة نضالية مألوفة تحاكي انجازات شعراء الأرض المحتلة . وإن بداياته التي تضمها مجموعة - قراءة في دفتر الرعد - لا تختلف كثيراً عن مواضع وتقنية محمود درويش .  
 لكن في مجموعتيه الأخيرتين - الغزاة تعود إلى البحر ، أيتها الحبيبة خذيه عاشقاً - يقوم بعملية تحويل ، أولنقل عملية التفاف اختصرت عليه الطريق إلى حد كبير نحو قصيدته الخاصة .

يعتمد عصام ترشحاني في مجموعة - الغزاة .. - إلى تكثيف الصورة الفنية وتفجير الموسيقى ، حيث تتجاوب الصورة الكلية مع المفردة الواحدة بنغم متصل ، لا تجد فيه انقطاعاً . إضافة إلى دمج أحاسيسه الخمسة على شكل وشيعة مركبة ، تلتقط حركة العالم الخارجي الثرية فتحولها إلى نبضة شعرية .

ولكن هل استطاع عصام ترشحاني بواسطة مؤهلاته الفنية السابقة أن يصبح شاعر مقاومة ؟ بقدر ما هي الإجابة على هذا السؤال مخرجة تبدو سهلة ، ولكنها في الحالتين ضرورية لا بد منها .

أستطيع القول : إن مجموعة ( الغزاة .. ) لا تطمح في أي قصيدة من قصائدها ، أن تكون شعر مقاومة ، إلا أنها تطمح وبمقدرة عالية إلى إثارة جو المعركة القومية من جانبها الإنساني . وسوف يستمر عصام ترشحاني في مجموعته التالية ( أيتها الحبيبة .. ) شاعراً يعيش شهوة المعركة من الداخل ، معركة الرصاص والدم والقنابل ، دون أن يبلغ ساحة المعركة

## قهوة المرفع...

احمد عودة

أنا لا أذكرها . على أية حال هي - كما يقول أبي - وصيفة يافا عروس البحر وملتقى الرجال ممن لم تعصف بهم ريح غربية ، فظلوا يلبسون الكوفية والعقال ، ومن تحت قمباز مرقط تموج عليه الشمس كلما رفرق ذيله حقلا من سنابل قمح أصفر .

وأبي يحكي على الفطرة . لا يزم شفيته ويصفن ليخرج الكلام من فيه موزونا يوهم الغير بأنه متحدث لبق . يحكي بمقدار ويعرف متى عليه أن يكون أحرص . هذه عادته مذ فتحت عيني عليه في الخيمة الداكنة ومنذ أن دخل رأسي بأنفه الشامخ وشاربه المعقوف يبرم ذؤابته ونظرة سهوم تستلقي في عينيه تسحبه بعيدا إلى أن تزقق أمي بصوت مذبوح :  
- وحّد الله .

ينتفض مأخوذا يللم طرف قمبازه ، ثم يأخذ وجهي بين يديه الخشتين . يطلق زفرة تلفح طلائعها الساخنة وجنتي . أعجب أين يسافر وهو معنا حتى إذا عاد كان مهدودا بوجه يتخاطفه الشحوب . يتشاغل بقتل شاربه ويسافر بعيداً حتى يصعب جمعه من جديد .

هذه عادته ، ولكن إذا ما ذكرت يافا اهتز وربما لذكرها . يترنح رأسه كأنما لينفض عنه غباراً يغير على الخيام ومنازل الصفيح يقتلع بعضها ويطوي هيبة بعضها الآخر . يممص شفثيه ويطلق زفرة حرى :

- ايه ! قهوة المدفع .

تغدو ملامحه أسيرة ذكريات عزيزة تضرب مجاذيفها في بحر عينيه . يتخضب وجهه بحمرة غربية أرى مثلها الكثير على وجوه الرجال والنساء وكذا الأطفال ، والكل محكوم ببضعة أرطال من الدقيق الأسود ، وبحفنة سكر أحمر ، وفي شهور البرد القارس قبضات من تمر فقد اسمه وهويته ، يرمي أبي إلي بحبة منه مغتاظاً .

- خذ . هذه برتقالة من يافا !

ويلعن وكالة الغوث واليوم الذي صار فيه لاجئاً يصطف طويلا تحت شمس لاهية أو بين فكي برد شرس . ولأنه لم يعتد هذا الذي يسميه هواناً وذلا وقلّة اعتبار ، كان ينفض قمبازه كلما عاد من مركز التوزيع مكفهر الوجه كأنما تلقى لطمة موجعة من يد حقود . يطلق الزفرات مردداً :  
- بعدما كنت أحمل صناديق البرتقال صرت حماراً لهذي الوكالة اللعينة ... صرت أحمل الطحين .

في قصيدة ( وتناثرت على جسمك ) وكأنه كان يؤسس لمجموعته التالية .

\* \*

تمتلك مجموعة ( أيتها الحبيبة خذيه عاشقاً ) جهازاً عصبياً حساساً ، مما يجعل قدرتها الإيجابية عالية ، واستطاعتها الاندماجية عالية أيضاً مع توتر مدهش الفعالية والأثر ، لا سيما في القصائد الست التالية : الحب يأتي من النافذة - غيمة من دخان وورد - دمه انفجار البرتقال - نهار الشجرة . . لهب الماء - موسيقى للغميمة القادمة - أيتها الحبيبة خذيه عاشقاً . إذ تمتاز ببعده حسي ، استبطاني ، يتألق في وسط المعركة . كما أنها تؤجل إضرام معركتها إلى ما بعد تحديد صورة العدو . فقصيدته ( دمه انفجار البرتقال ) تبدأ برسم صورة الوطن المحتل على طريقة محمود درويش والمؤالفة ما بين الوطن والمواطن ، الأرض وابن الأرض .

يقول الشاعر :

ماذا يرى في البرتقال ؟

الوقت يخطفه لينأى عن حدود

البرتقال

الوقت ينشره على جبل

فترسمه الكآبات العريفة

صورة للوقت

لا .. للبرتقال ...

ويجب الانتباه إلى ما تحمل كلمة ( الوقت ) من معنى إيجابي ، وحالة النقيض الإيجابية أيضاً التي تطرحها كلمة ( البرتقال ) بثقل مضاد لثقل الكلمة الأولى .

بعد ذلك تبدأ المعركة التي أصبحت مبررة ومنطقية . يقول الشاعر :

ماذا يرى ؟

دمه المعلق بين هاويتين

يمسك بالردى ...

دمه يطل من النهايات القديمة

يرتدي دمه حزام البرتقال

\* \*

إن مجموعة عصام ترشحاني الأخيرة تدفعنا للمراهنة على قصائده المقبلة ، وتضعه هو بالذات أمام مسؤولية تطوير خطه الجديد الذي يبتعد بثقة عن مؤثرات شعراء المقاومة المؤسسين ، في سبيل لغة خاصة وصوت شعري متميز .

حلب